أشياء لا تدعو للدهشة !

قصة بقلم محمد صدقي

- ١ -

العينان الثعلبيتان بوميضهما المخاتل ..

الفم الضيق الذي يشبه فم سمكة بلطية ، والانف اليهودي الناتيء القصبة ، والذقن المدببة المنبئة عن شدة مراس في المداورة..

نفس ملامح الوجه الذي يعرفه ، واشارات اليدين النحيلتين يراهما .. اشارات اليدين المشعرتين المبرقتين لكل ما هو متناقض، او حتى بشع بشاعة الكذب الوضيع ..

امامه تخايلت ملامح الوجه والكتفين المقوستين ، والذراعين.. الجسد كله بقامته القصيرة ، رآه يتوسط فراغ حجرة المكتب الواسعة المكيفة الهواء ..

رآه .. بدا له خيالا ، شبحا .. كانما سقط من سقف الحجرة ينظر اليه ، يراقبه ، يواجهه ..

واختلط عليه تماما ما يتخيله خلال جلوسه على نفس المقعد الوثير الدوار ، في نفس حجرته الواسعة ، مرآة المكتب البلورية الكبيرة امامه ، وآلات التلفون الثلاث ، ومجموعة ازرار سكرتيرة المكتب، والساعي ، ثم المصحف الصغير بغلافه الفضي المزركش بالنقوش العربية والدواة الفرعونية النحاسية ، واجندة الاجتماعات بسطورها القليلة مفتوحة امامه ...

●

لا ...

ايمكن ان يحدث هذا ...؟!

أيكون هذا مكتبه ، هذه مسئوليته الجديدة التي اوقعوه في شباكها ، ويضطر لان ينظر الى الجالسين امامه : رؤساء الاقسام على مقاعدهم مبتسمون موافقون ، يسمع آراءهم في ما كتبوه خلال الاسبوع الماضي وعيناه على ملاحظاتهم التي سبق ان سجلها امامه على الاجندة في لقاءات منفردة ، ثم يهز رأسه ، يسمع .. يسمع .. اقتراحات ، وابداء اعجاب ، واسئلة ، ونقد يحمل في ثناياه التبرير، ويسمع .. يسمع .. ثم لا يجيب سوى بكلمة يعني .. يعني .. يعني التي لا تعني تفسيرا محددا سوى انه .. سوى انه ...

وارتجف رأس « سين » على الوسادة ..

تلاشت من راسه صورة حجرة مدير التحرير وعينيه الثعلبيتين والمقعد الدوار والمكتب ..

كل جسده كانت قد سرت خلاله من نهاية الراس الى اخمص القدمين رجفة فتح على اثرها عينيه وابصر زوجته الى جواره يكتشف انه يرقد في فراش نومه بملابسه الداخلية والشمس تملأ النافذة وصورته مع زوجته في حلة الزفاف المستعارة على الحائط تواجهه واكوام كتبه الى جوار السرير تزحف تحته حتى الناحية الاخرى قرب باب الصالة ..

هو اذن ليس في الجريدة ، لم تحدث الكارثة ويصبح مديرا للتحرير .. هذا مالا يمكن ان يحدث ، ماعاناه .. مارآه في المنام كان حلما استيقظ فزعا منه ، والساعة الان قد تجاوزت الحادية عشرة او الثانية عشرة ...

وتحسس بيده سخونة الحائط وراءه يتاكد ، يتذكر ، لقاءه امس مع مدير التحرير .، « انا ..؟ انا يا « سين » ماذا استطيع ان افعل من اجلك .. حتى من اجل نفسي .. انت لو تدري كيف اتخطى المشاكل » .

واختلجت اجفان عيني « سين » .. مالت راسه على الوسادة تعرضت صفحة وجهه لضوء النافذة على عينيه ، خواطره تسترجع كلمات مدير التحرير ، صوته الخافت واللؤم الخبيء وراء نظرات عينيه الماكرتين وهو يبتسم ، يتظاهر بالعجز ، يحاول الاقناع بيديه النحيلتين اللتين تملكان ناصية لغة تبرير قديرة التعبير ، يفسر باشارات اصابعهما الطويلة ابلغ مما يترجمه ذهنه على لسانه بصوته الخافت خفوت الريبة .

« مشاكلك كلها يا « سين » سببها الكتب .. الكتب التي تقراها الكتب الجادة اكثر من اللازم ، الكتابة العميقة في موضوعات اعلى من مستوى القراء ، ثم حكاية التحويل الاجتماعي التي تتوارى وراء كل ما تكتب ، التحذير دائما مما يمكن ان يحدث .. مالك انت وما يمكن ان يحدث .. هه .. انت تخلق المشاكل ثم تاتي تنقد وتشكو.. لماذا لا تبعد عن الشر وتفني له .. الذكي الان من يكتب مالا يثير او يغضب أحدا .. انت تاكل عيشا بالغموس .. كله واسكت ،الصحفي هذه الايام يخطف الكلمة ويجري .. عموما دع انت هذا الموضوع لحسني ، وهو اقدر منك على كتابته .. اذهب انت الليلة حاول ان تكتب تحقيقا باسلوبك الادبي عن الكوديات وحفلات الزار التي انتشرت .. او فلتفكر كيف تكتب يومية مثيرة عن ظاهرة انتشار حفلات رقص الشبان الهيبز على شواطيء الاسكندرية .. لكن تذكر وانت تكتب هذا ايضا .. الصحفي هذه الايام .... »

وتتخايل نظرة العينين الثعلبيتين ، كل ملامح الوجه الهضيم وراء المكتب الكبير ، والمقعد الدوار ، وآلات التليفونات الثلاث ، والمصحف بغلافه الفضي ...

اسمعني يا « سين » .. استفد من نصائحي ، الصحفي هـذه الايام تماما يشبه ....

والثعابين في اشارات يديه النحيلتين تتلوى .. تعبـر .... تحـذر ..

يا للعذاب والضيعة .. كل هذا لانني ذهبت اليه اشكو تلميذه وصفيه رئيس القسم ، وهو قد تعب من شكواي وتكرارها ، كيف لا افعل مثل تلميذه النجيب ، الفائز دوما بالعلاوات الدورية ،وبدلات السفر المتكررة .. فشلت ، وسافشل ، لا استطيع ، عقلي،صدري لا يجد متنفسا بغير الصراع اليومي من اجل الحقيقة ، هذه مهنتي، انفاس لا بد ان اتنفسها او اختنق ، والا فالعودة لبيتي كـل يوم حزينا ارتمي على فراشي اخمد انفاسي في الوسادة ، افكر لماذا يحدث هذا .. لماذا .. لا انا بالنائم ولا انا بالصاحي مع عـذاب التفكير والاسئلة المعروفة الاجابة التي يثقل اقتناعي بها قهرالعجز.. العجز الذي اصبح الليل معه مشكلة دائمة تؤرقني ، مشكلة افـزع منها بما يراودني خلالها من الاماني التي لا تتحقق ، انتظرها وتتاخر.. او بالقلق المفزع كالذي رايته في المنام اخافه .. اخاف معه .... اخاف منه ...

وتلفت « سين » من شرود خواطره على صوت زوجته ولمسـة من ذراعهـا .

ـ ايه .. فيه ايه .. مالك كده زي ما تكون ..

ـ لا .. ابدا .. بسرعة هاتيلي قميص نضيف ، عايز انزل .

ـ بسرعة ليه .. طب امسح عرقك الاول .. مالك ..؟

ـ بس والنبي يا الله قبل ما يعملوها ...

ـ الله ؟ هم مين اللي يعملوها هو حصل ايه ؟

ـ ما حصلش ، بس ممكن يحصل ، جايز ، خايف ليحصل ، تبقى كارثة ...

ـ كارثة .. يا مصيبتي .. طب ما تفهمني ..

ـ ٢ ـ

عرق لزج كان يتصبب من ذقن « سين » وعنقه ، عيناهشاردتان، جسده على السرير وفكره هناك في الجريدة ، ايمكـن ان يحـدث هذا ، يوضع في شرك ذلك المنصب شيءمضحك ، لا يمكن ،تكوينه.. ظروفه ، راسه وما فيه ، العناد العاقل ، ربع قرن من الصلابة ، لا .. ليس هذا ممكنا .. كل ما مر به في المنام رآه ، عاناه ، كان حلما لا .. لا ....

واستند براسه الى الحائط وراءه يتنهد .

ـ ليس هذا الا مجرد رؤيا .. منام ..

مسح باصابعه حبيبات العرق اسفل ذقنه يتـذكر ، حاول ان يستعيد تفاصيل ذلك الحلم الذي ازعجه ، عاد يناقش نفسه ((مصيبة فعلا .. مصيبة لو يكون مثل ذلك القرار قد صدر ، ويجد نفسهاليوم عندما يصل الى الجريدة مواجها بذلك الوضع الذي لا يتمناه .

مصيبـة ...!!

وحملق شاردا لا يرى ما امامه ..

امس بعـد ان عاد من الجريدة كان قد ظل وقتا طويـلا جالسا وحده فيالصالة قبل ان ينام ، يفكر فيما يحدث له ، للناس مـن حوله ، في الجريدة ، في الشارع ، في النقابة . في الاتوبيس . في الجمعية التعاونية ، في .. لكنه صرف عن ذهنه فجاة كلتفكير ، محاولا ان يحسم الشـك باليقيـن ..

غادر فراشه ، قال لنفسه وهو يغسل وجهه قبل ارتداء ملابسه « ربما كانت افكارك التي شغلتك امس هي سبب ذلك الحلم المزعج الذي طاف بخيالك وانت نائم متعب .. ربما ، لكن فيم الاستغراب والقلق .. فلتذهب الى الجريدة يا « سين » تتاكد ... »

يتاكد .. يتاكد من ماذا ؟

سخر من خيالاته التي تراوده ، عاد يسال نفسه .

لكن ما المانع حقا من ان تجد نفسك ؟. الم تحدث اشياء اغـرب من هذا ؟ اشياء اصبحت بتكرارها عادية لا تدعو الى الدهشة ؟ ثم انت .. صحيح ليست عندك ادوات هذا العصر ، لكن يطوعونك لان تتاقلم ، تجد نفسك قد تمرست على ان تكون لـك هذه الادوات يا ابن المنجد .. وتضعف .. تنزلق شيئا فشيئا .. ماذا تفكر ؟ تظن هـذا مستحيلا ان يحدث لك ؟ من يدري ؟ اشجع منك فعلوها .. لانهم .. تقول لانهم .. فلسفها .. قل ان ذلك صعب ، مستحيل .. لكن من يدري ؟ الم يصبح كل شيء ممكنا ؟ اليس الكثيرون ممن لم تكـن تظن انهم ..

ـ ٣ ـ

... وهمّ « سين » بادخال ساقه في البنطلون ..

كـان امام مرآة الدولاب لحظتها يقف وشاهد حركة ساقه فـي البنطلون فضحك ..

همس لنفسه .. « يا الله .. ممكن ، او غير ممكن اللي يعمل نفسه قنطرة لازم يستحصل الدوس .. والا حتعمل ابو علي ..! »

وضحـك ...

وجد نفسه يضحك ، لكنه بعد لحظة ادرك ان ضحكته يشوبهـا الحـزن ...

حزن اكتشف ان مصدره قلقه ، خوفه من ان يتحول حلمـه فعلا الى حقيقة ...

فزع مـن تصور ان يراه الناس صورة اخرى مـن صديقـه ذلك الكاتب الذي طالما اعجب بكتاباته ثم أحس طربا عاقلا بالحمـاس والمسئولية يوم رقي من محرر الى مدير تحرير ، وظيفة نسي بعـدها اشرف ما في عمره ، قسوة طفولته ، احلام شبابه من اجل النـاس ، كل ما طمحت اليه كلمات قلبه وقلمه لتصبح صورته امام الناس بمـا يكتبه ، بمرتبه الضخم ، بسيارتـه ، بمكتبه المكيف الهواء ،وضخامة التبريرات التي .. لا .. لا .. كيف يمكن أن ...

ـ ٤ ـ

ومسح « سين » جبهته بالفوطة ...

احكم رباط عنقه ، نظـر الى السقف الاسمنتي حيث يسكنحجرته الوحيدة بدورة المياه الواسعة على السطوح ..

أحقيقة كل ما خطر بباله هذا ؟ ام هي سخونة الشمس أثـرت على سطح العمارة وراسه أيضا ...

هز يده محاولا صرف كل هذه الخواطر عن ذهنه مرة اخرى .. الحلم المزعج ، والخواطر التي صاحبته .. اسئلة نفسه واجاباتـه عليها .. ثم زوجته ايضا .. وخطا يغلق وراءه باب الحجرة نـازلا سلالم الادوار الستة محدثا نفسه ، ما الذي يرعبه من حلمه هذا ، او تلك الوظيفة ، لا .. هو لا يصلح لها ، ولا احد يرضى ان يمكنه منها ، ولا هو يقبلان يبيع نفسه لها مهما يحتمل ان .. يضطـر ... حتى .. اذ .. لو يكون .. ربما .. قد ..

ـ ٥ ـ

في الطريق وتفاصيل الحلم قد عادت تغزو راس « سين » ، تتجمع في ذهنه كان يجتاز ارصفة ، باعة صحف ، فتيات ، شبان ،سيدات، فترينات ملابس ، عربات ، اشارات مرور ، وجوه ووجوه لا يميزها حتى اجتاز بوابة الجريدة ، ودخل الاسانسير ، ثم في فراغ صندوقه الحديدي حوصر بصوت الآنسة عنايات سكرتيرة مديـر التحرير تحادثه في موضوع لا يفهم أوله من اخره ، حتى وقف الاسانسير في الدور الخامس ، وابتسم لها متجها الى نهاية الصالة الوسطى حيث مكتبه والظلال الرمادية ، ورائحة الحيطان المطلية حديثا والقلق المبهم ، واحساسه بثقل بدنه كله فوق كتفيه ، كل ذلك يحاصره ، حتى دخل

مكتبه يحيى الجالسين زملاءه ، يلقي تحية الصباح ، يتامل استغراقهم في العمل بطريقة عادية مثلما يحدث كل يوم ، عيونهم على الاوراق امامهم ، وايديهم بالاقلام فوق صفحاتها تتحرك ، وتتحرك .

وهو يفتح درج مكتبه عبرت عيناه وجوههم ..

لا احد يلتفت له بنظرة ..

لا احد ابتسم في وجهه ، او كلمه في موضوع القرار ، او فاتحه في تغييرات حدثت ، مشغولون الثلاثة زملاؤه بما يكتبون .. اذن لا شيء قد حدث ، او يحدث .. المسالة انه نام امس متعبا ، ربما متضايقا اكثر من اللازم ، لكنه مجرد حلم استغرق تفكيره ورغبته الكامنة في التغيير .. ربما ..

لكنه لكي يصرف عن نفسه ما يشغلها لمس تفاحة الجرس الكهربائي خلف مقعده ، وضغطها .. صفق بيديه .. نادي باعلى صوته الساعي حتى جاء ...

ـ قهوة من فضلك يا سليم واطلب لنفسك شاي وهات لي شوية ورق ...

ـ ٦ ـ

جذب « سين » نفسا عميقا من السيجارة ، سوى الوراقة الجلدية بسطحها النشافي فوق لوح المكتب الزجاجي ثم اخرج قلمه الحبر ، وضعه امامه في متناول يده ، مسح بنظرة مستنكرة وجوه زملائه المحررين مرة اخرى ، تابعهم صامتين منكبين على الاوراق بين ايديهم باقلامهم يكتبون ويكتبون ويكتبون ، حتى مل متابعتهم فانصرف عنهم يفكر أن يستغرق في الكتابة هو الاخر ...

يكتب .. يكتب .. ماذا يكتب ؟ يحاول البدء في كتابة القصة التي تشغله فكرتها منذ اسبوعين تلح على ذهنه دون ان يسمح ذلك القابع داخل رأسه بالرضا عن كلمات لمدخلها ، صورة يلتقطها خياله ويرضى هو عنها ، يجد فيها ما يعبر عن الصدق ويثير اهتمام القارىء كان يبدأ القصة مثلا ...

واسند راسه على راحة يسراه يفكر ...

نقر باصابعه أعلى اذنه يبحث عن بداية لنقطة الانفجار في حدث القصة الرئيسي من أين يبدأ .. من اين تبدأ يا « سين » .

وبرق الخاطر في ذهنه ...

من فلاح الاصلاح الزراعي « عطية ابو علوان » تكون نقطة الانفجار ..

يبدأ هكذا مثلا ...

منتصف الليل ، عطية قد خرج من داره الى أرضه يروي فدان القطن فاذا به وسط ظلام بيوت القرية قبل أن يبتعد عن نهاية بيوتها امام الجمعية التعاونية يرى شبح باسيلي افندي امين مخزن الجمعية يدس المفتاح في قفل الباب والفقير عطية ابو علوان قد ظهر الى جانبه يتحدث معه ثم يتحرك ببندقيته يرقب الطريق حتى اذا ما ابصر به ونادى عليه اضطرب باسيلي افندي واسرع علوان ببندقيته .. لا .. لا .. ليس هكذا يمكن ان ...

ـ ٧ ـ

وتنبه « سين » لما حوله .. الجرسون يضع فنجان القهوة وكوب الماء ، وزملاؤه المحررون لا زالوا يكتبون ويكتبون ...

احتسى رشفة من فنجان القهوة ، بكفيه والقلم بين اصابعه يسوّي الاوراق البيضاء امامه وشفتاه ترتجفان ، يحدث نفسه .. هكذا يبدأها ...

منتصف الليل .. ليل شهر طوبه الغطيس ببرودته اللاسعة التي يمد المرء فيها يده امامه لا يراها و « ابو علوان » غفير القرية بالبالطو الكبوت والعلامة النحاسية والبندقية ثم اصوات وقع اقدام على شاطيء الترعة الاخر ، شبح يتحرك بين نخيل جماعة « ابوماضي »

يتحرك الشبح ، ويتحرك ، يختفي ، ويسمع عطية ... « أ هـ ..ها.. مين هناك » .. لا أحد يرد ، لا اصوات حوله سوى ايقاع صراصير الحقل ينق .. ناق .. نيق ناق .. والقمر قمر قرية « النعايمة » في المحاق يختفي وراء سحابة زرقاء معتمة تحجبه ، الريبة تبدأ تتسلل الى صدر عطية ، حتى يسمع فجاة خلفه ناحية الجمعية صوت تكة ارتطام شيئين معدنيين ببعضهما فيجمد مكانه باحساس مهني يعرفه غفير قضى بهذه المهنة عشرة اعوام ، احساس حذر بان شيئا ما مريبا يحدث على مقربة منه ...

والقلم بين اصابع « سين » يجري بالكلمات يكتب ويكتب ، حتى ملأ اكثر من نصف سطور الصفحة .. ثم توقف ...

اخذ يعيد قراءة السطور التي كتبها ، يتمثل دلالتها ، وفجاة هبش الصفحة ، كورها بين اصابعه ، هم بالقائها في سلة المهملات خلفه .. ثم تردد ...

عادت ذراعه بها ...

بسطها امامه ، سواها باصابعه على سطح المكتب الزجاجي ، قراها مرة ثانية وخاطر آخر ببداية جديدة يخايل ذهنه قبل ان يضعها تحت كمية الاوراق بين يديه ، وعلى صفحة جديدة بدأ يكتب ، ويكتب .. حتى ملأ الصفحة كلها وبدا صفحة اخرى ثم رفع يده بالقلم يراجع ما كتب ، ويهز رأسه بالرفض ، باحساس العجز ...

سيجارة اخرى أشعلها ، وابتلع بقية كوب الماء ، وباصرار بدأ يكتب بداية اخرى في صفحة جديدة ، يكتب سطورا ثم يشطبها ، ويكتب ، ويشطب ، ويقلب الصفحة ليعود من جديد يبدأ بداية اخرى لا تعجبه ، لا يشعر أنها تعبر حقيقة عما يريد ان يقوله او لا يمكن ان ...

ـ ٨ ـ

كان قد وقف الى جوار مكتبه لحظة يريح انهاك عقله ...

خطا خطوتين وسط الحجرة ، ثم عاد يستند بظهره لمكتبه ، اشعل سيجارة تابع من خلال دخانها بدقة فاحصة سكون الحجرة حوله ، وملامح وجوه زملائه في المكتب وهم مستغرقون في الكتابة ، وهز راسه يسخر من حكمة سخيفة سبق أن رواها له عن مثل هذا الموقف محرر عجوز ، ثم عاد يجلس ليقلب في الاوراق التي سجل عليها بدايات محاولاته حتى انفعل فجاة مع رشفة اخرى من كوبة الشاي ، وبدأ على رأس صفحة جديدة يكتب عنوان القصة الذي خطر بباله للتو في اربع كلمات « لا شيء يدعو الى الدهشة » .. لا .. فليشطب هذا العنوان ، يجعله هكذا .. « اشياء لا تدعو الى الدهشة » ..

مشجونا بحماس طاريء بدأ « سين » يكتب ..

« لم يصدق عم سالم النعناعي مخزنجي الجمعية اذنيه اول الامر عندما وجه اليه الاتهام من رئيس الجمعية الشيخ سالم الطنيخي زوج شقيقة العمدة امام مأمور المركز ومفتش التعاون ونائب الاصلاح ... نظر اليهم جميعا لحظات صامتا ثم فجاة اثار قلقهم بمشهده منفعلا يخلع جلبابه والصديري... والفانلة .. يرمي بها امامهم على الارض صارخا .. »

وتوقفت حركة القلم في يد « سين » على الصفحة ...

عاد يقرأ ما كتب بصوت مهموس تسمعه اذناه ، ثم قال لنفسه: لا .. لا .. هذا لا يمكن ان .. ثم يحسن ان تبدأ القصة هكذا .. « منذ أن سمع أهل قرية « النعايمة » مع الصباح بحكاية قفل مخزن الجمعية المكسور وما كتب عنه في محضر التحقيق وابتساماتهم على وجوههم بلا كلام كانت تكشف عن السر الذي لا يجرؤ احد على البوح به امام احد يمكن ان ينقله لآخر ... كان الواحد منهم ما يكاد يهل من بعيد ويراه الاخر حتى يناديه يساله ..

ظل « سين » كتب ويكتب .. صفحتان ملأهما بالسطور المتلاحقة

دون ان يشطب كلمة واحدة حتى توقف القلم بين اصابعه مع تنهيدة التقط معها أنفاسه ثم بدأ يعيد قراءة ما كتب وقد بدأت اشراقة الحماس التي كانت تكسو صفحة وجهه تتلاشى ، عيناه تحملقان فيما يقرأ ، حتى انفجر صدره بضحكة مكتومة هز معها رأسه يتململ في جلسته وعيناه على وجوه زملائه الثلاثة وراء مكاتبهم ...

غمغم لنفسه .. خربشة على الورق .. خربشة على الورق .. لا شك انهم .. او انني .. واعتصرت يسراه الاوراق امامه شاردا دون ان يدري ماذا يفعل سوى ان يحملق امامه .. يفكر ..

قصتان قدمهما هذا الاسبوع رفضتهما تبريرات مدير التحرير، وأمس اختصر له رئيس القسم تحقيقه الادبي حول الادباء الشبان ولماذا يهربون من الواقع الى الرمز الغامض ، اختصره بجرأة غبية خمسة اعمدة الى عمودين بعد أن حذف المقدمة واضاف اسئلة من عنده واجابات عليها تكشف عن جهله بالموضوع ، فعل ذلك ببساطة، وارسل الموضوع للمطبعة دون ان يهتم باعتراضه ، بغضبه ،بتوسله..

لـ « لكن يا استاذ « منير » .. ارجوك ، لا اريد نشر هذا الموضوع ... أنا لا افهم لماذا .. ثم انت .. انت .. » ظل يصرخ يشير بيديه يوشك ان يخبط رأسه في الحائط حتى غادر الجريدة يسائل نفسه يحتقرها .. الى ان ناداه صديقه محسن ...

ـ ايه .. خبريه يا « سين » ماشي بتكلم نفسك ...؟؟

ـ اهلا محسن .. ابدا ... بس بادور على واحد اكلمه ويفهمني ..

ـ يفهمك .؟.. طب اسمعني انا الاول ...

وحديث الارصفة الجانبية ، ونسمة ليل طارئة ، ورشيد وعادل قابلاهما باستفسارات حول مقال المصور المثير حول فدائيي الجبهة الشعبية بعد محاولتهم نسف الطائرة السويسرية في مطار زيورخ...

والتقطت عيناه نظرة لمجلة الكواكب على المكتب المجاور ثم توقفت افكاره عند امس كأنما قطعت تسلسلها شفرة غضب حاد بقرار اتخذه لم في ذهنه ، اشتعل فجأة وهو يقوم دون ان يشعر بحركة جسده المنتفض جامعا اوراقه التي كتب فيها ما كتب يعتصرها بين اصابعه، يغادر الحجرة منطلقا عبر المشي حتى يصل دورة المياه ويقف امام باب المرحاض ..

نظر حوله منتفضا بالضيق يملأ صدره والرائحين والغادين امامه في الممشى يرى وجوههم بلا معالم ، بلا تفاصيل ، لا شيء يثير انتباهه سوى فكرة تتسلط على ذهنه ...

فجأة .. فجأة وجد نفسه يدخل المرحاض ، يغلق بابه خلفه ، يبسط الاوراق التي بيده ، يعيد قراءة بدايات القصة .. يقلب الصفحات ، يقرأ ، ويقرأ ، ثم يهز رأسه يهزه بشدة ، واصابعه تهشم الصفحات تكورها ، يصيح دون ان يشعر « اسمي «سين» وانا كاتب .. أنا اكتب .. اعاني ما اكتب .. انا موجود ، اريد لذلك أن اقول ، ان اعبر . لكنني افهم ان .. ان .. ان .. يسقط المطر من السماء ، يعيش السمك في الماء ، والا فما أروع شعر الخنساء ، ولتكن الكلمات علاجا كما هي الداء .. هي الدواء .. الدواء .. الدواء ... »

ـ ٩ ـ

ظل « سين » يصرخ الداء .. الدواء .. الدواء .. حتى تلاقت مع طرقات يده فوق باب المرحاض من الخارج ، طرقات متلاحقة اخرى ، وصوت يسأل :

ـ مين جوه .. فيه ايه ...؟؟

ـ ما فيش حاجة ..

ـ امال مالك .. انت مين ..؟؟؟

ـ مالي ايه .. مالكش دعوة ..

ـ ماليش دعوة ازاي .. انا باسأل .. انت عايز حاجة ..؟؟

ـ حاجة .. لا ياسيدي ، كتر خيرك ، مش عايز حاجة .. الا حاجة ..؟ حاجة زي اللي شفتها في المنام .. لا .. انا باعمل زي الناس اللي لازم تعمل ، فيها حاجة دي كمان .. مع السلامة ..

قال مع السلامة ، وارتجف قلبه في صدره ، كان كأنما يريد ان يضحك ، لكن حزنا مجبا يملأ قلبه..

لماذا كل هذا .. الا يستطيع أن يسيطر على عقله الذي يعذبه، مسئولية ضميره التي يعاني منها ..؟

سأل « سين » نفسه ، سأل واجاب منفعلا واصابعه تتقلص على الاوراق في راحة يده لحظة ولحظة ، ثم فجأة القى بها في حوض المرحاض ، وجذب سلسلة « السيفون » يتابع انهمار ماء الخزان فوقها وهي تدور مع دوامته وتدور حتى تتشرب مسامها بالماء وتغوص بلون حبر الكلمات ، تختفي ، ويسمع نقرتين خفيفتين على الباب تدقان ، وصوت خطوات تبتعد ...

غضبه بعد أن ابتلع المرحاض الاوراق المكتوبة المشطوبة كان قد هدأ ...

حلت محله سكينة حزن دموي يسري في أوصاله ، التوتر الذي كان يحكم اعصابه سقط في قدميه ، رأسه اصبح كساحة حرب يتربص على جانبيها خصمان في انتظار بداية صدام ساخن.

يسراه كانت تمسك بمقبض الباب يتهيأ للخروج ، يهم .. ثم يتوقف :

نظر حوله لحائط المرحاض المرتفع ، السكون من حوله ،ونسمة تهل من النافذة الشرقية المطلة على سطوح بيوت بولاق الفقيرة ، ومربعات القيشاني البيضاء اللامعة حوله ، وخاطر مثير بدأ يغزو رأسه يشدد يده على مقبض الباب ، متذكرا اسئلة ذلك الذي طرق الباب يسأله لماذا يصرخ .. ماذا يريد ....

استرجع نغمات صوت ذلك الطارق محاولا ان يخمن من كان صاحبه دون ان يهتدي لمعرفته ، ثم عاد يحاول وفشل ، قال لنفسه .. ليكن من يكون .. ماذا يريد شخص يصرخ كصراخي هنا .. أريد ان اخلع جلد هاملت ..أريد أن تكون لي الارادة والفعل معا ، على الاقل فيما اقدر عليه ، أشد السيفون على شيء لا يعجبني ، على كتابتي ، قلمي ، يدي مادمت عاجزا عن احضار ذلك الذي يتحكم في ما اريد أن اكتب ، احضره من وراء مكتبه المكيف الهواء ، اقول له انني .. ماذا .. هذا تصرف لا يليق بي فعله خصوصا وهذا مكان.. لا .. لا .. لو انني استطيع حقا احضاره هنا نتحادث وحدنا ، في رأيي ان هذا مكان مناسب جدا نتحدث فيه على راحتنا ، ثم هو مكان نظيف حسب مقتضى الحال ، نظافته ومربعات القيشاني البيضاء تجعله صالحا ، هو حتى لا ينقصه الهواء المكيف كالذي في مكتبه.. الغشاش ، احقر المبررين الذي خدعني بكتابته وهو شاب ، قبل ان يصبح من اصحاب المرتبات الكبيرة ، غشني دم السمك الذي تحت جلده وهو يحكي لي ايام حماس شبابنا عن طفولته ، عن عذاب امه وأبيه ، البؤس الذي عاشه معهما وكيف .. نعم .. نعم .. حاضر.. خارج حالا ..

ونظر « سين » لملابسه ، مرتب هندامه ، أدار مقبض الباب، خرج ، نظر حوله .. لا احد كان امام الباب يطرق او ينتظر ...

ـ ١٠ ـ

مربعات ارضية الصالة الرخامية البيضاء والسوداء النظيفة اللامعة تتعامد خطوط فواصلها مع نظراته تحدد له معنى يزيده ارهاقا .

ويخطو في الصالة بطيء الخطو يتأمل ..

الابيض ابيض ، والاسود اسود ، حدود المواقف لا بد أن تكون قاطعة كتلاقي الخط الابيض بالاسود تحت قدميه ، امام ناظريه ..

« مهما تفلسف الامور يا « سين » هاملتيا بارادة الفعل وعقم العجز ، فانت حيث تضع نفسك .. انت مدان .. »

وبالبشاعة القهر الذي تشعر به يسحقك ، وشيء ما ساخن يلسعك في صدرك بحرقته ...

ـ اتفو ...

بصق في اتجاه لافتة الحروف السوداء على الرقعة النحاسية اللامعة للصالة الكبيرة ، صالة السكرتارية .

اصطدمت قدمه وهو يخطو بصندوق جهاز البرقيات الخارجية المعطل وتلامست اصابعه مضطربا بسطحه البارد يتوقى متراجعا .

ـ اتفوه مرة أخرى ...

لكن بصاق هذه المرة بالغضب تناثر على شريط « الة التيكرز» الساقط على الارض يملأ مساحة ركن الصالة ، ورآه محرر جديد لا يعرفه فنظر اليه مستغربا ملامحه الغاضبة يستفسر بنظرة تجاهلها وهو يجتاز باب حجرته ...

غاضبا نظر لمكتبه ولزملائه الثلاثة الذين يكتبون ويكتبون صامتين كما تركهم .

نظر اليهم ، تأمل حركة ايديهم بالاقلام تقفز فوق الاوراق امامهم حتى جلس بلا ارادة مقصودة ، تتحرك ذراعه باوراقه يضعها في الدرج وتعثر اصابعه بمجموعة صحف اليوم يخرجها يلقي نظرة على عناوينها . ثم يزيحها جانبا ويعود يخرج اوراقه مرة اخرى ..والقلم.

في ملل كان يحاول ان يقهره .. تمطى .. تنهد .. اطرق يفكر لحظات .. ثم حرك قلمه في كفه وبدأ يعود يكتب ... ويكتب.

نفس فكرة القصة كان قد استخصرها مرة أخرى في ذهنه مبتدئا من كلمات « زبيدة » زوجة غفير القرية التي يستنطقونها في دوار العمدة ، شهادة عن الحكاية التي لاتعرف لماذا اخذوا بسببها بندقية زوجها قبل ان يحبسوه في غرفة السلاحليك ...

ـ ١١ ـ

ظل « سين » يكتب ويكتب ، لا يدري ماذا يكتب ..

نهايات الكلمات الكثيرة التي خطرت بباله يبتعد عنها قلمه مخلفا سطورا كتبها ، ويكتب غيرها ، حتى توقفت اصابعه بالقلم ليعود يقرأ ، ويشطب كلمة ، وكلمة ، ثم سطرين .. ثم فجأة دون أن يعي ما يفعل كور الورقة باصابع متشنجة ورمى بها وراءه في سلة المهملات.

السكون في الحجرة حوله رابض بثقله المتجمع فوق كتفيه يحس وطأته عذابا .. القلم قلمه كذنبه امامه على الورق الابيض يواجهه ، كصليبه لا بد ان يحمله ، مالا مفر منه لا مفر منه ، عقيم يظنه غيره لكنه على العجز يستبسل ، بالمثابرة بصليبه على كتفه، بقلمه امامه يسأل نفسه : اليس هناك من منفذ للخلاص ، طريق اواجه فيه الاعصار بالبحث عن مصدر اتجاهه عساني ..

واجتذب من اعماق صدره شهيقا عميقا ، زفر آهة لسعت حنجرته المتخشبة ، عيناه بالغيظ الساخر تتابعان الجالسين امامه على مكاتبهم منكبين على اوراقهم يكتبون ويكتبون يتابع وجوههم ، يتاملهم، يتفحص هياكلهم ، ملابسهم ، طريقتهم في الجلوس ، ثم تجمدت نظراته معلقة في الهواء امامه يحدث نفسه :

« يا ابناء الافاعي ، هادفون وادعون كان كل شيء حولكم ،في رؤوسكم ، في قلوبكم على ما يرام .. كيف بهذه البساطة هكذا انتم قادرون على الانسجام مع انفسكم وما يحدث حولكم .. ذاتي.. كل ما هو داخلي ، حولي ، يثيرني بالغضب .. هل يمكن ان اكون انا وحدي ... »

وكانما اكتشف شيئا غاب عن ذهنه ثم ادركه الان للتو ..

وقف ينظر حوله ...

غادر مكانه وراء المكتب يتحرك وسط الحجرة يروح ويجيء .. يتحسس صدره ، ذراعيه ، جنبيه ، يهز كتفيه ، يرفع حاجبيه، قسمات وجهه تحمل ايحاء التساؤل الملح وفي عينيه الواسعتين غرابة ذاهلة .

حول نفسه دار مرتين ،

فك ازرار قميصه الاسبور ينظر داخله ثم دس يديه في جيوب البنطلون واخرجهما بالدهشة لاصابعه الفارغة وعيون زملائه الثلاثة وراء الكاتب قد تنبهت لغرابة تصرفاته حملقت فيه ستريبه حتى ساله الاستاذ عبده :

ـ ايه .. فيه ايه يا استاذ « سين » حاجة ضايعة منك.. فلوس .. ؟

ـ فلوس ... ؟!! بتقول فلوس ...؟

ـ امال ايه اللي بتدور عليه ..؟؟؟

ـ لا ابدا .. بادور على نفسي ...

ـ على نفسك ..؟؟ بتقول بتدور على نفسك ..؟؟

ضحك الاستاذ « منير » متظاهرا بالسذاجة ، وقال الاستاذ القصبجي خنيسا بصوته الهادىء ..

ـ على نفسك .. لاه .. دانت النهارده ، الظاهر يعني كده..

وسكت القصبجي حتى كانت ضحكة زميله منير قد تلاشت ، تحولت مع نظرته المبهمة الى تساؤل محايد ، ساخر ، ثم تعجب مقرون بالفزع ... فزع رآه الاستاذ القصبجي في عيني زميله منير وفهم دلالته ، ثم بهدوء متعمد قال :

ـ ايوه .. ايوه يعني الاستاذ « سين » حالته النهارده حالة.. يعني حاله.. حاله ..

كرر الاستاذ القصبجي كلمة « حاله .. حاله » وهو حذر وراء مكتبه متكوم محني الظهر بالقلم في يده وعيناه على « سين » الذي بدأ يخلع قميصه ثم يعلقه على ذراعه وهو لا يزال يبحث في جيوب بنطلونه .. وتحت الفانلة .. يبحث ثم ينظر لقدميه ثم الى القصبجي ومنير .. ويعود يبحث .. يقلب في جيوبه حتى دخل الحجرة الاستاذ فهيم رئيس قسم الترجمة ينظر للريبة في عيونهم ولتصرفات « سين» يتامل ما امامه دون ان يفهم للوهلة الاولى شيئا مما يراه ..

ـ ١٢ ـ

هل فهم الاستاذ فهيم شيئا مما اثار انتباهه في تصرفات « سين»؟ .. ابدا .. لم تسنح له فرصة ...

القصبجي وعبده ومنير الثلاثة وهم يحملقون في « سين » ما كادوا يفاجأون بدخول الاستاذ فهيم ونظراته المتسائلة حتى تبادلوا اشارات القلق بين عيونهم وقام القصبجي يتحرك مسرعا نحو الباب..

فان يبحث « سين » عن نفسه داخل ملابسه ، هذه مشكلة يعرفونها .. او يتجاهلونها ، هي مشكلتهم في الحجرة هنا وحدهم ينكرون معرفتهم بها او يتظاهرون بعدم فهمهم لها .. لكن ان يدخل الاستاذ فهيم حجرتهم ويرى ويسأل ثم يسمع ليخرج يتحدث عن ذلك في صالة الترجمة مع من يثق فيه ومن لا يثق وهم شهود على ما حدث .. كان امامهم .. لا .. هذه مشكلة اكبر .. واعوص بل واخطر ..

تبادل الثلاثة النظرات ، تفاهمت العيون ، ثم اسرع القصبجي مبتسما يقول ويده تمتد الى ذراع فهيم افندي ..

ـ يا جماعة مافيش حاجة ، البس قميصك يا استاذ « سين».. البس قميصك الله يهديك ، البس واستهدي بالله .. واقعد.. لا مؤاخذة يا استاذ فهيم ، اتفضل دلوقت سيبنا شوية من غير مطرود ...

كان « سين » والقميص في يده يراهم ولا يراهم ، كان كل ما يشعر به هو تفسيرهم لكلمة « حالة » التي تملأ اذنيه ، يسمعها.. يسمعها .. تدوي في اذنه .. حتى رأى الباب يغلق بعد خروج فهيم افندي والقلق على وجوههم والقميص في يده واوراقهم على المكاتب حتى صرخ :

ـ حاله .. انا حاله ..؟!

وضحك ..

قهقه عاليا .. نظر مبتسما لهم .. ثم مكشرا .. غاضبا ..غاضبا .. حتى انفجر صدره بضحكات هستيرية عالية وشبكة من الدموع تغشى على نظرات عينيه الملتهبتين ، ثم التفت فجأة يواجههم :

ـ ها او . قال « حالة » قال ...

وانفرست نظراته على التوالي في عيونهم المستطلعة .

ـ « حاله » يا بتوع حالي بالي ع اللي جرالكو واللي جرالي .. يابتوع كله زي بعضه ، يابتوع هو يكتب ، انت تكتب .. انا اذن اكتب .. الف من يكتب .. كتب يكتب كتابة كتوبة .. كتوبات .. كتابنجي .. كتاتاتا .. تاتي .. تاتو . تا .. تي ، تو .

ـ ١٣ ـ

وتحرك وسط « سين » كفاه في ناحية ، وعجزه وفخذاه في ناحية اخرى ، ثم قفز فجأة على مكتبه . اعتلى سطحه البلوري في قفزة واحدة بحذائه ، بالبنطلون والفانلة يلوح بقميصه أعلى رأسه يصيح.. تا .. تي .. تو .. وهات يا رقص ..

ظل يحرك قميصه بيده في الهوى اعلى الحجرة ، ذراعه تتعامد متعاكسة مع حركات وسطه الراقص .. عيناه ضاحكتان ، وشبكة من الدموع لا تزال تغشاهما قد بح صوته ، والقصبجي قد ابتعد يلصق ظهره بباب المكتب المغلق كما لو كان بذلك يداري فضيحة هو مسئول عنها ، او فاحشة تقذعه في دنسها يحس في داخله انه له بها ثمة علاقة ..

ظل يدفع ظهره في الباب لحظات ماخوذا فزعا مما يرى ..حتى امتلك صوته الغائب وعاد يهمس :

ـ استاذ « سين » استاذ « سين » ، وحياتك ماتودينا في داهيه، انزل انزل الله لا يسيئك ، انزل امال .. هات ايدك ...

ظل القصبجي يمد ذراعه لـ « سين » راجيا .. يرجوه ويرجوه .. حتى اقترب منه بشده من ساقه يحاول ان يمسكه من ذراعه ، يوقف حركة الوسط الراقص حتى استجاب « سين » لذراعي القصبجي الاثنتين ورجاءات ضراعته الفزعة قائلا له وهو يضحك .

ـ ما يصحش ايه .. بارقص .. ماله الرقص .. مش احسن من اللي بتهببه دا ع الورق

ـ طب بس انزل والبس قميصك الاول .. انزل احنا بنقول عليك عاقل ورزين ..

ـ ليه . ما هي دى حاله برضه ، حاله واحد زي مش قادر يبقى زيك .. حاله .. مش انت بتقول الحالة ..

ـ لا يا سيدي .. ولاحالة ولابتاع .. انا غلطان .. بس انزل عشان خاطري .. ماليش خاطر عندك .؟! انزل وانا ادن لك في ودنك، انزل .. الله اكبر الله اكبر ، انزل امال ، عشان خاطري .

ـ يا سيدي خاطرك غالي .. بس خليني ارقص .. كمان شوية .. استريح حبه .. افك عن نفسي !

ـ ياراجل عيب ...

ـ عيب .. عيب ايه بس .. حاجة غريبة .. انت وهوه بتبصولي كده ليه .. مندهشين من ايه .. انا شخصيا مش شايف حاجة ابدا تدعو للدهشة .. كل شيء منسجم مع بعضه ... انتم وانا فالوقتي واللي بره .. زي ما تكون فيه عبقرية غير منظورة منظمة كل البشاعة دي ، مرتباها عاملاها بها رموني ، بتوافق وانسجام ... الي بتعملوه انتو واللي جابوكو واللي حواليكو ماشي .. ماشي مع بعضه ومع كل اللي باعمله انا كمان دلوقت .. اوعه .. اوعه خليني ..

ـ وبعدين معاك بقه ...!!

ـ صدقني اللي بقولك عليه ده صحيح .. وانت عارفه كمان، عارف بس مش قادر .. او بتستهبل .. مش كده .؟ باقولك انا باتكلم بعقل ، وعشان تصدقوا اني باتكلم جد ، ادوني اهو نازل،اهه.. وحا البس كمان ، عايزين ايه تاني ، عايزين ابقى زيكو ..طيب.. آهه ..

ـ ١٤ ـ

ونزل الاستاذ« سين » من فوق مكتبه ..

في هدوء متعمد وعيناه على وجوههم ارتدى قميصه ، ثم اشعل سيجارة وجلس على مقعده وراء الكتب ..

نظر اليهم .. الى المكاتب الثلاثة .. والى وجوههم .. واوراقهم عاد يضحك ويضحك .. انفجر يقهقه عاليا .. عاليا .. حتى دمعت عيناه .. وهز رأسه .. ثم اخرج اوراقه والقلم .. واعتمد على ذراعه بجانب رأسه وبدأ يكتب .. ويكتب .. ويكتب ..

القاهرة

محمد صدقي

سليمان فياض

العيون

رواية

مجموعة قصصية جديدة لهذا القصاص الفنان الذي يعد في طليعة القصاصين العرب تعبيرا عن ازمة الانسان العربي في المجتمع الحالي .

صدر حديثا

الثمن ٣٠٠ ق.ل.

منشورات دار الآداب